

الفكر العمراني عند ابن الشعّار الموصلي من خلال كتابه (قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)

أ.م.د. عبد الجبار حامد احمد
كلية الآداب – جامعة الموصل

تاريخ تسليم البحث : 2010/12/12 ؛ تاريخ قبول النشر : 2011/3/2

ملخص البحث :

صنف ابن العشار الموصلي (ت 654هـ/1256م) كتابه (قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)، وقد سلط فيه الضوء على الجوانب العمرانية والحضارية من خلال الشخصيات التي ترجم لها، فتحدث عن العمران الثقافي والعلمي من خلال ترجمته للعلماء ومنجزاتهم، وعن العمران الاقتصادي من خلال ترجمته للتجار وأصحاب المهن، وعمران المنشآت المعمارية من خلال ذكره للخطط في المدن التي مرت بكتابه، وكذلك تناول العمران السياسي من خلال حديثه عن الخلفاء والوزراء والأمراء الذين ترجم لهم، كما تناول العمران الديني من خلال حديثه عن المذاهب الفقهية لمن ترجم لهم.

Architectural Thinking of Ibn Al-Sha'aar Al-Mosuli

Asst. Prof. Dr. Abduljabbar H. Ahmed
College of Arts/University of Mosul

Abstract:

Ibn Al-Sha'aar Al-Mosuli (died 654 A.H.) wrote a book known as "Qalaa'id Al-Juman fi Faraa'id Shu'araa' hatha Az-Zaman" which means "exquisite poems in this period". In this book, he shed light on architectural and cultural aspects throughout the biographies for whom he wrote. He talked about the cultural and scientific progress through the biography of the scientists. Similarly, he talked about the economic progress through what he wrote about trader and profession men. Architectural progress also has its portion in his book. Likewise, he mentioned the political developments as he talked about caliphs, ministers, and princes mentioning their biographies. Finally, he tackled the religious aspects mentioning the juristic schools and their scholars for whom he wrote biographies.

تمهيد :

صنف المسلمون في التاريخ والجغرافية والاجتماع والفلسفة وغيرها ، ومنهم من تخصص في علم واحد ومنهم من كتب في أكثر من علم ، وقد تخلل كتاباتهم مواضيع شتى في كل فن من فنون المعرفة ، ومن خلال تلك المواضيع يمكن استنباط الفكر العمراني لدى كل منهم ، ولما كان العمران هو كل جهد بشري يؤدي إلى إنجاز حضاري، فإن كل عالم من علماء المسلمين ركز فكره العمراني في جانب من جوانب المعرفة التي تعد أساساً في عمران الحضارة الإسلامية ، ويشمل الفكر العمراني عند الكتاب المسلمين عمران الاقتصاد وعمران السياسة وعمران الدين وعمران خطط المدينة ومنشأتها . فمثلاً تحدث ابن حوقل (ق4هـ/10م) من خلال كتابه (صورة الأرض) عن عمران الاقتصاد الى جانب فكره الجغرافي ، كما تحدث ياقوت الحموي (ت626هـ/1228م) عن عمران المدينة الإسلامية من خلال وصفه لكل مدينة وردت في كتابه (معجم البلدان) وميزاتها وما اشتهرت به ، وأبرز علمائها ، كما تحدث ابن الأثير (ت630هـ/1232) في كتابه (الباهر في تاريخ الدولة الاتابية في الموصل) عن الجوانب السياسية والاقتصادية والخطط في الموصل والمدن التي وردت في كتابه ، وهذا يمثل جانب من الفكر العمراني لديه . وتحدث ابن ابي اصيبعة (ت668هـ/1269م) في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) عن الأطباء ولاسيما المسلمون منهم ومنجزاتهم في المعرفة الطبية ، وهذا يمثل جانب من الفكر العمراني الذي طرحه المؤلف ، وهكذا بالنسبة لجميع المصنفات الأخرى ، فكل كاتب لديه فكر عمراني طرحه في مصنفه .

وقد اعتمد الباحث على نظرية أبن خلدون في علم العمران⁽¹⁾ وحاول تطبيقها على ما جاء في كتاب (قلائد الجمال) لأبن الشعر الموصلي (ت654هـ/1256م) لبيان المحاور التي وردت فيه والتي تعكس العمران والحضارة في المدينة الإسلامية.

(1) تحدث أبن خلدون عن طبائع العمران، والظواهر الاجتماعية وكيفية حدوثها، لأن مهمة علم العمران هو البحث في تلك الظواهر التي تحصل نتيجة الاجتماع البشري، فيقول: ((كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ... وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران)). مقدمة ابن خلدون، مكتبة المثنى، (بغداد: د/ت)، ص 35. لذلك فإن أبن خلدون يستقرئ ظواهر العمران الواحدة بعد الأخرى حسب أسبقيتها الزمنية، فبدأ بالعمران البدوي وعوارضه الذاتية كالنسب والعصبية لينتقل إلى العمران الحضري وما يختص به من بناء المدن والأمصار وما ينشأ فيه من الاحتكاك والتبادل للخبرات، الشيء الذي نتج عنه ظواهر تاريخية خاصة بهذا النوع من العمران كالصناعات والمهن والعلم والتعليم وكل نشاط فكري آخر يمثل تاريخ الحضارة. ينظر: الجابري، محمد عابد، العصبية والدولة (فكر ابن خلدون)، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: د/ت)، ص 161.

يتكون الكتاب من عشرة مجلدات ، وصلنا منها ثمانية مجلدات ناقص الثاني والثامن ، وقد حققه كامل سلمان الجبوري وطبع في بيروت سنة (2005م) ، وجاء المطبوع في تسع مجلدات ، وكان المجلد الأخير فهارس للكتاب .

والمتمعن لهذا الكتاب يلحظ انه تناول فيه تراجم شعراء القرن السابع للهجرة ، وعند دراسة كل ترجمة من تراجمه التي وردت في هذا الكتاب نجد انه تناول في الترجمة الواحدة النواحي السياسية والدينية والاقتصادية كما سيرد شرحه . وهو بذلك قد تنوع فكره العمراني في جوانب عدة تمثل بمجموعها النهضة العمرانية الواسعة في القرن السابع للهجرة والتي سادت في المدن العربية الإسلامية التي انتمى اليها أولئك الشعراء الذين ترجم لهم ابن الشَّعَّار ، ويأتي في مقدمة تلك المدن ، مدينة الموصل ، فبحكم انتمائه الى هذه المدينة حاول ان يوثق عمرانها في مختلف الجوانب من خلال تراجمه لأدبائها وأعلامها .

ولاشك انه كان يتوخى الدقة في توثيقه للجوانب العمرانية لكونه اعتمد في ذلك لقاءاته الشخصية لبعض من ترجم لهم ، ولذلك أورد مصطلحات كقوله :

(أخبرني) ⁽¹⁾ او (حدثني) ⁽²⁾ او (لقيته غير مرة) ⁽³⁾ وغير ذلك . فضلاً عن مشاهداته ومعايناته المباشرة ، فكانت الكثير من رواياته قد جاءت نتيجة الوقوف على الأحداث بشكل مباشر ، لذلك جاء وصفه دقيقاً لكثير من المنشآت العمرانية كالجامع والمدرسة والرباط ودار الحديث وغيرها . وهو لا يغفل اعتماد الكتب المدونة سواء التي سبقت عصره او التي عاصرتة من اجل زيادة توثيق الكثير من المعلومات مثل كتاب العماد الكاتب الأصفهاني (ت597هـ/1200م) الموسوم بـ (خريدة القصر وجريدة العصر) ⁽⁴⁾ وكتاب (تاريخ أربل) لأبن المستوفي (ت637هـ/1239م) الذي كرر استخدامه ⁽⁵⁾ ، وكتاب ابن الدبيثي (ت637هـ/1239م) الموسوم بـ (ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد) ⁽⁶⁾ وكتاب (إنباه الرواة على أنباه النحاة) للقفطي (ت

(1) ابن الشَّعَّار ، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، (بيروت: 2005)، م 1 ج 1 / 340 و م 6 ج 7 / 108 ، 201 ، 272 .

(2) نفسه ، م 2 ج 3 / 101 .

(3) نفسه ، م 1 ج 1 / 357 .

(4) نفسه ، م 1 ج 1 / 247 ، 155 و م 2 ج 3 / 354 .

(5) نفسه ، م 1 ج 1 / 98 ، 212 ، 219 ، 446 ، م 3 ج 4 / 149 و م 4 ج 5 / 44 و م 5 ج 6 / 77 ، 264-267 و م 6 ج 7 / 246 ، 256 ، 313 ، 308 ، 304 ، 262 و م 7 ج 9 / 142-144 .

(6) نفسه ، م 1 ج 1 / 107 ، 197-198 ، م 3 ج 4 / 253-257 ، 368-369 و م 5 ج 6 / 97 ، 290 ، 325 و م 7 ج 9 / 211 .

646هـ/1248م⁽¹⁾ وكتاب ابن العديم (ت660هـ/1261م) الموسوم بـ (بغية الطلب في تاريخ حلب)⁽²⁾ وهكذا .

وتأسيساً على ما ورد آنفاً فقد جاء كتاب (قلائد الجمان) لابن الشعّار الموصلّي غنياً بفكره العمراني الذي يمكن استنباط عدة محاور منه وهي على النحو التالي :

الفكر العمراني السياسي / الفكر العمراني الديني / الفكر العمراني العلمي والأدبي / الفكر العمراني الاقتصادي / عمران المنشآت . وقد اقتبس الباحث أمثلة من الشخصيات التي وردت عند ابن الشعّار لتوثيق تلك المحاور .

وهذه المحاور بمجملها تمثل الفكر العمراني عند ابن الشعّار . وقبل البدء بدراسة فكره العمراني لابد من إعطاء نبذة مختصرة عنه .

هو كمال الدين ابو البركات بن ابي بكر بن حمدان بن احمد بن علوان الموصلّي (ت 654هـ/1256م) العالم الأديب المؤرخ ، وكان شعّاراً يعمل آلة الجمال ، وقد وصفه ابن المستوفي بأنه شاب كان مغرّياً بجمع الأشعار ويحفظ التاريخ والحكايات وأسماء الشعراء ومواليدهم وأنسابهم ، وهو ليس بشاعر⁽³⁾ ، وقد تتلمذ على عدد من شيوخ عصره أمثال سليمان بن المظفر بن موسى بن منصور ابو الربيع الاربلي المولود سنة (566هـ/1170م) حيث كان ابن الشعّار يقول عنه بأنه : " هو أستاذي الذي علمني الخط وله عليّ حق الوالد على ولده " ⁽⁴⁾ .

ومن شيوخه ايضاً مكي بن ريان النحوي (ت603هـ/1206م) الذي كان يسميه (شيخنا)⁽⁵⁾ ، وكذلك عبد الرحمن بن عبد الله بن رشيد الموصلّي المعروف بالصيقل ، الذي كتاب ابن الشعّار عنه كثيراً من الروايات⁽⁶⁾ وغيرهم كثير .

وكان يرحل الى الأقطار لجمع المعلومات ولقاء من ترجم لهم ، فرحل الى تكريت وبغداد واربيل وحلب ودمشق والرقّة وحرّان وواسط ومصر⁽⁷⁾ ، وكان فقيراً ، لذلك قال عن نفسه : " وقد

(1) نفسه ، م 1 ج 1 ، 224-223 ، 235-238 و م 8 ج 10/209 .

(2) نفسه ، م 1 ج 1 / 238-239 و م 4 ج 5 / 343-345 .

(3) تاريخ اربل، تحقيق: سامي ابن السيد خماس الصقار، المركز العربي للطباعة والنشر، (بيروت: 1980)، ق 1 / 384 .

(4) قلائد الجمان ، م 2 ج 3 / 79 .

(5) نفسه ، م 3 ج 4 / 271 و م 8 ج 10 / 105 .

(6) نفسه ، م 2 ج 3 / 311-312 وللتفاصيل عن حياته ينظر : السبعوي ، حنان عبد الخالق ، المنهج التاريخي عند ابن الشعّار الموصلّي (ت654هـ) في كتابه (قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان)، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، (جامعة الموصل : 2010) ، ص 24 وما بعدها .

(7) السبعوي ، ص 32-50 .

أقدمني الفقر بحقه وصيرني أسيراً في قبضته ورقّه ، والدهر يجرّ عني كاسات حتوفه ، ويصيبني بسهام صروفه " (1) . وبعد حياته الطويلة والملئّة بالعلم والمعرفة حط الرحال في حلب ، حيث توفي هناك .

وأخيراً أرجو ان أكون قد وفقت في معالجة ما طرحه ابن الشَّعَّار من أفكار تعكس تطور الحضارة الإسلامية في حقبة من حقبة المهمة وهو القرن السابع للهجرة .

الفكر العمراني السياسي

لما كانت السياسة تعني إدارة البلاد وخدمة الشعوب فهي تسهم في عمران الحضارة نظراً لما تقدمه من خدمات على الصعد كافة من اجل مصلحة البلد والشعب ، لذلك فإن ابن الشَّعَّار تطرق الى السياسيين والحكام من خلفاء ووزراء وولاة ، محاولاً تسليط الضوء على تلك الشخصيات ومكانتها وما قدمته من اجل تطور البلاد ، لذلك يمكن اعتبار ذلك جزء من الفكر العمراني الذي دار في مخيلة ابن الشَّعَّار ، لاسيما اذا علمنا انه عاصر بعض الخلفاء العباسيين أمثال الخليفة الناصر لدين الله (575-622هـ/1179-1225م) الذي حكم بحدود سبع وأربعين سنة ، وكذلك عاصر الدولة الاتابية في الموصل ذات الشأن في الإصلاح والاعمار وغيرهما من حكام الدول (2) .

فمثلاً ترجم للملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب (ت613هـ/1216م) صاحب حلب (3) ، الذي وصفه بأنه كان من الملوك ذوي المهمة العالية عارفاً بتدبير الملك والدولة ذي سياسة حكيمة ذكية في الرعية عادلاً منصفاً ، كثير الخيرات والإحسان محباً للعلماء والفضلاء ، فضلاً عن كونه شديداً وحازماً في حكمه إلا انه بعيد عن الظلم (4) .

كما ترجم لأحد أولاد صلاح الدين الأيوبي وهو علي بن يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب ، الملك الأفضل ، ابو الحسن (ت622هـ/1225م) الذي حكم مصر والشام بعد أبيه ، فقد وصفه ابن الشَّعَّار بأنه كان يقرب العلماء ويكرمهم ، ويحترم رجال الدين ويتقرب منهم ، فضلاً عن قوله الشعر (5) .

كذلك ترجم للملك الكامل الأيوبي محمد بن محمد بن أيوب بن الملك العادل (ت635هـ/1237م) الذي حكم مصر ودمشق واليمن والجزيرة الفراتية ، فقد أثنى عليه واصفاً إياه

(1) قلائد الجمان ، م1 ج1/64 .

(2) السبعائي ، ص 7 .

(3) قلائد الجمان ، م4 ج5/292-293 .

(4) نفسه ، م4 ج5/293 .

(5) نفسه ، م3 ج4/338 .

بأنه كان محافظاً على الشريعة الإسلامية ، وأحيا سنة النبي محمد (ﷺ) ، وانشأ داراً للحديث النبوي بالقاهرة ، وقرب العلماء ، وأغدق عليهم الأموال ، وكان كثير المطالعة في كتب الحديث ، كما كان مواظباً على الجهاد وحقق النصر على الصليبيين واسترجع ثغر دمياط ، لذلك أثنى عليه الشعراء بالمدح وطارت شهرته في البلاد⁽¹⁾ ، كما ترجم للوزير علي بن شماس بن هبة الله (ت622هـ/1225م) الذي كان كاتباً في ديوان الإنشاء للملك مظفر الدين كوكبوري في اربل ، ثم أصبح وزيراً له ، فقد أثنى عليه ابن الشعار فعده من محاسن زمانه عاملاً لطيفاً جليلاً فيه ذكاء ودهاء وخبرة في الأمور السلطانية ، لذا كان ذا رأي ثاقب وحزم شديد ، يقرب العلماء والأدباء والفضلاء ، فضلاً عن كونه أديباً وشاعراً⁽²⁾ ، وغير ذلك الكثير من رجالات الدولة الذين ترجم لهم وذكر محاسنهم وفضائلهم من اجل خدمة الدولة والناس .

إن ثناءه على تلك الشخصيات يعني انها أسهمت في اعمار بلادها أثناء حكمها لها ، فكانوا خير حكام لبلادهم ، لذلك فإن الإشادة بهم تعني ان ابن الشعار يعبر عن فكره السياسي العمراني الذي أورده في كتابه . ومن جهة أخرى فإن الأحداث السياسية التي أوردها ابن الشعار في سياق تراجمه ، حاول من خلالها توثيق تلك الأحداث مبيناً ما تعرضت له المدن الإسلامية ، وموقف حكامها من تلك الأحداث ومعالجتهم لها ، ومن الأمثلة على ذلك :

ما أورده من خلال ترجمته لأحمد بن المبارك بن نوفل النصيبي (ت644هـ/1265م) حيث ذكر انه في سنة (633هـ/1235م) حاول التتار غزو الموصل ، فأمر بدر الدين لؤلؤ حاكمها آنذاك بتعطيل المدارس ، وإبعاد الفقهاء والمدرسين عنها حفاظاً عليهم ، وأمر ان لا يقيم فيها غير الفراش والبواب والإمام والمؤذن ، ثم وضع فيها الجند والأمراء من اجل حمايتها ومقاومة العدو ، وقد وثق ابن الشعار ذلك بقصيدة نقلها عن احد الشعراء يندب فيها الوضع ويصور تلك الحادثة الشنيعة ، وبعد زوال الغمة أمر بدر الدين لؤلؤ برد الفقهاء الى المدارس وإعادة جريائهم (المواد العينية) وذلك سنة (634هـ/1236م) وقد وثق ذلك ايضا بقصيدة⁽³⁾ ، كذلك وثق فتح بين المقدس من خلال ترجمته لعبد المنعم بن عمر بن عبد الله ، ابو الفضل الغساني الجلياني الحكيم والأديب ، حيث ينقل عنه قصيدة يمدح بها الملك صلاح الدين الأيوبي ويهنئه بفتح بيت المقدس في ليلة السبت السابع والعشرين من رجب سنة (583هـ/1187م)⁽⁴⁾ ، وهو بذلك يحاول

(1) قلائد الجمان ، م6ج7 / 310-312 .

(2) نفسه ، م3ج4/288-289 .

(3) قلائد الجمان ، م1ج1/266-267 .

(4) نفسه ، م3ج4/113 ، 114 .

ان يطرح فكره العمراني من خلال توثيق تلك الأحداث السياسية ودور الحكام في معالجتها من أجل مصلحة البلاد الإسلامية .

الفكر العمراني الديني

لما كان الدين الإسلامي أساس ثقافة الشعوب الإسلامية ، وهو سبب تطوره وحضارتهم ، لذلك فإن ابن الشَّار قد تنبه الى مسألة الدين ، فعندما ترجم لأعلامه ذكر دياناتهم وتطرق الى مذاهبهم الفقهية ، لأن ذلك يعد جزءاً من عمران المجتمع وعمران البلاد لكون التمسك بالدين الإسلامي وإتباع مذهبها والعمل بوصاياه يؤدي الى بناء المجتمع وتماسكه ووحدته وتطوره .

فعندما يترجم لمحمد بن عمر بن حفاظ بن خليفة ، أبي عبد الله السعدي (ت642هـ/1244م) يذكر انه كان فقيهاً حنفياً ، وكان يدرّس المذهب الحنفي بجلب⁽¹⁾ . كما يصف محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي (ت655هـ/1257م) بأنه فقيهاً مالكيًا⁽²⁾ وان له تفسيراً للقرآن الكريم لم يصنف احد من العلماء مثله⁽³⁾ ، ووصف إسماعيل بن علي بن الحسين ، ابو عبد الله الشيباني (ت620هـ/1223م) بأنه فقيه حنبلي⁽⁴⁾ ، وكان عالماً في علم الخلاف والأصول والنظر والجدل ، وبرع فيهم ، وصنف كتاباً لذلك⁽⁵⁾ ، وغيرهم كثير .

ولما كانت المذاهب الفقهية وسيلة لمعالجة القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع ، وبواسطتها يستطيع الإنسان ان يؤدي واجباته الدينية على الوجه الأكمل ، فمعنى ذلك بناء المجتمع بناءً جيداً يؤدي الى عمرانهِ .

الفكر العمراني العلمي والثقافي

شمل الفكر العمراني عند ابن الشَّار الجوانب العلمية والثقافية للذين ترجم لهم ، ولما كانت المعرفة العلمية والثقافية تعد أساساً مهماً للحضارة الإسلامية وإحدى دعائمها القوية ، لذلك فإن ابن الشَّار أكد على الجانب العلمي كثيراً لأنه يرى ان عمران البلد يأتي من خلال ازدهار العلم والمعرفة في ذلك البلد ، لذلك اظهر الجوانب العلمية لكل ترجمة وردت في كتابه حيث تناول نشأة المترجم لهم العلمية بدءاً منذ الصغر ولاسيما قراءة وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فضلاً عن الحساب والتاريخ وتعليم الخط⁽⁶⁾ ، فمثلاً عندما يتحدث عن احمد بن

(1) نفسه ، م6ج7/272 .

(2) قلائد الجمان ، م5ج6/315 .

(3) نفسه ، م5ج6/316 .

(4) نفسه ، م1ج1/411 .

(5) نفسه ، م1ج1/412 .

(6) عبد الخالق ، حنان ، المنهج التاريخي ، ص83 .

الحسين بن احمد بن ابي المعالي بن منصور المعروف بابن الخباز (ت639هـ/1241م) النحوي الضريير اللغوي ، يذكر انه اقبل على طلب العلم منذ نشأته فحفظ القرآن الكريم ، وقرأ وحفظ التتبيه لأبي اسحق الشيرازي ثم دَرَسَ الأدب والنحو واللغة والعروض والقوافي على شيوخ عصره في الموصل⁽¹⁾ ، وكذلك ما ذكره عن الشيخ احمد بن إبراهيم بن ابي بكر ، ابو العباس بن ابي عبد الله الاربلي (ت681هـ/1282م) بأنه ترك اربل سنة (626هـ) الى بلاد الشام ، وقرأ في حلب فقه الإمام الشافعي على ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن الخباز الموصلي ، كما قرأ النحو على ابي البقاء يعيش بن علي النحوي ، كما سمع مسند البخاري على ابي جعفر محمد بن هبة بن المكرم الصوفي⁽²⁾ ، وكذلك الحال مع عبد الله بن احمد بن علي بن عبد الله ، القاضي ابو محمد بن ابي العباس البغدادي (ت620هـ/1223م) حيث قال عنه بأن والده قد بالغ في تعليمه من خلال الذهاب به الى مجالس العلم ، حيث حفظ القرآن الكريم وتعلم الخط الجيد وقرأ الأحاديث النبوية وتعلم النحو ، وكان من شيوخه ابو محمد عبد الله بن احمد بن الخشاب النحوي ، وابو محمد إسماعيل بن موهوب بن الخضر الجواليقي ، وابو الفضل احمد بن شافع⁽³⁾ وغيرهم ، وهكذا مع جميع من ترجم لهم ابن الشعار ، حيث كان اهتمامه شديداً بتدوين النشأة العلمية لمن ترجم له ، وكذلك تدوين أسماء شيوخهم لكي يبين للقارئ ان هؤلاء العلماء يمتلكون خلفية علمية رصينة أسهمت في تطور الحضارة الإسلامية .

كما تناول الرحلات التي قام بها هؤلاء العلماء من اجل إكمال علومهم وزيادة معرفتهم العلمية ، فضلاً عن التلاقح الفكري الذي يحصل نتيجة لقاءاتهم مع علماء المدن الأخرى وحصول العلاقات العلمية ، لذلك فإن الرحلة عامل مهم في زيادة المعرفة العلمية ولقاء الشيوخ في مختلف الأقاليم الإسلامية مما يؤدي الى تراكم العلوم والمعارف ، وهذا يعد جزء من الفكر العمراني العلمي عند ابن الشعار .

فمثلاً عندما يتكلم عن عبد الرحمن بن وثاب بن نصر الله ، ابو القاسم البزاعي ، الذي ولد ببزاعا (قرية قريبة من حلب) سنة (586هـ/1190م) يذكر انه رحل لسماع الحديث في حلب ودمشق وبيت المقدس والموصل وحرّان ومكة والمدينة وبغداد⁽⁴⁾ .

وعندما يتكلم عن إسماعيل بن موسى بن منصور ، ابو المجد البوماري (بومارية من قرى الموصل الغربية) ، كان حياً سنة (620هـ/1223م) ، يذكر رحلته الى بغداد لطلب الحديث

(1) قلائد الجمان ، م1ج1/253 .

(2) نفسه ، م1ج1/245 ، 246 .

(3) قلائد الجمان ، م2ج3/201 .

(4) نفسه ، م2ج3/337 .

وقراءة القرآن المجيد ، ومنها رحل الى عبادان لطلب العلم ايضا ثم عاد الى الموصل⁽¹⁾ وغير ذلك كثير .

وفي معرض حديثه عن العلم والمعرفة لم ينسَ ابن الشَّعَّار الإجازات العلمية التي كان منحها الشيوخ لطلابهم ، والتي كان لها شأن كبير في الفكر العمراني العلمي والثقافي ، لأن الإجازة تعد اعترافاً من الشيخ بان طالبه قد اجتاز العلم الذي درَّسه ، كما انها تعد وسيلة يحرص عليها الشيخ لضمان انتشار علمه انتشاراً صحيحاً سليماً خالياً من التحريف ، لذلك أكد على هذا الجانب ، فعندما يترجم للشيوخ والعلماء في كتابه (قلائد الجمان) يحرص على ذكر الإجازات العلمية التي حصلوا عليها من شيوخهم ، فمثلاً عندما يتكلم عن إبراهيم بن عيسى بن درباس المصري ، ولد سنة (572هـ/1176م) يقول إنه بعد ان رحل الى البلاد لطلب الحديث حصل على إجازة علمية من ابي طاهر السلفي⁽²⁾ ، وكذلك عندما يترجم للمحدث عمر بن ابي بكر بن يحيى البغدادي (ت634هـ/1236م) يقول : انه حصل على إجازة علمية من ابي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي ومن غيره . ويقول عن إبراهيم بن نصر بن عيسى الموصلي ، ابو اسحق بن ابي الفتح العبادي ، كان حياً سنة (630هـ/1232م) ان له إجازات علمية من عدة مشائخ⁽³⁾ ، وفي أثناء حديثه عن محمد بن يوسف بن الخضر بن عبد الله المعروف بابن الأبييض الفقيه الحنفي (ت614هـ/1217م) والذي هو احد شيوخ ابن الشَّعَّار الذي درَّس عليهم فقه الإمام ابي حنيفة وشيئاً من الحديث ، يشير ابن الشَّعَّار انه حصل من ابن الأبييض على إجازة علمية في ذلك⁽⁴⁾ وغير ذلك كثير .

ويدخل ضمن الفكر العمراني التعليمي عند ابن الشَّعَّار ، ما ذكره عن العلاقات العلمية بين علماء المدن الإسلامية ، لأن تلك العلاقات تنتج تلاحقاً علمياً ، فضلاً عن التعاون العلمي الذي يحصل بين المدن الإسلامية ، وكذلك نقل المعرفة العلمية من مدينة الى أخرى ، لذلك تعد العلاقات العلمية وجهاً آخر من وجوه الفكر العمراني العلمي عند ابن الشَّعَّار ، فعندما يتحدث عن العلاقة العلمية التي كانت قائمة بين يوسف بن رافع بن تميم الاسدي الموصلي المعروف بابن شداد (ت632هـ/1234م) وبين محمد بن احمد الموصلي (ت622هـ/1225م) فينقل عن ابن شداد قوله في محمد بن احمد ما نصه : " كان عين المجلس ووجهه ، وله في صحبتنا هذه المدة ، لم نطلع منه الا على الصحة والخير " ⁽⁵⁾ ، وعندما يتكلم عن محمد بن ابي الفرج بن

(1) نفسه ، م1 ج1 / 428 .

(2) قلائد الجمان ، م1 ج1 / 90 .

(3) نفسه ، م1 ج1 / 132 .

(4) نفسه ، م5 ج6 / 282 .

(5) نفسه ، م5 ج6 / 282 .

معالي بن بركة ، الفقيه الشافعي ، أبي المعالي الموصلي ، يذكر علاقته العلمية مع علماء عصره ، فينقل عن أبي الحسن القطيعي قوله ، وهو يثني على أبي المعالي : " رفيقنا من أهل القرآن والفقه والأدب 000 " ⁽¹⁾ وغير ذلك . ولاشك ان منهج ابن الشعار في توضيح العلاقات بين العلماء من خلال الثناء والمدح الذي يكيّله كل منهم للآخر ، دليل على التطور العلمي آنذاك والذي يعكس فكراً عمرانياً يمثل النهضة العلمية .

ومن خصائص الفكر العمراني العلمي عند ابن الشعار محاولته الجادة في استعراض تخصصات من ترجم لهم ولاشك ان تلك التخصصات تعد ثروة علمية تناقلها العلماء جيلاً عن جيل الى الوقت الحاضر ، فذكر من تخصص في علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه واللغة والنحو والأدب بفنّه المنظوم والمنثور فضلاً عن ذكر من تخصص في العلوم العقلية كالطب والرياضيات ، فابن الشعار يحاول استقصاء كل التخصصات لكي يوضح ان لعلماء المسلمين اليد الطولى في المعرفة العلمية ، فكان لزاماً عليه ان يوثق تلك العلوم لأنها تسهم بشكل او بآخر في اعمار الحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامي .

ولم يكتف بذلك بل كان يبحث عن مؤلفات من ترجم لهم ، لأن التخصصات الواردة آنفاً يجب ان تدون لكي تكون شاهداً على المعرفة العلمية التي كان يمتلكها علماء المسلمين ، ومن خلال تلك التصانيف التي نجدها مسطرة في ثنايا كتابه وفي مختلف مجالات المعرفة ولأغلب من ترجم لهم ، يثبت ابن الشعار فكره العمراني في مجال العلم والمعرفة ، لأن تلك التصانيف كانت دليل عمل للأجيال المتتابة .

الفكر العمراني الاقتصادي

تنوع الفكر العمراني عند ابن الشعار ، ففضلاً عما ذكر آنفاً ، فقد تناول في فكره الجوانب الاقتصادية ، لأن عمران المجتمع يرتبط بعمران الاقتصاد والعكس صحيح ، فمتى ما كان الاقتصاد مزدهراً كان المجتمع مرفهاً ، وعندما يتدهور الاقتصاد تضعف إمكانيات المجتمع المادية ، لذلك فإن ابن الشعار يتحدث من خلال تراجمه عن المهن والوظائف ، وفي الوقت نفسه فإن تلك المهن تعكس الوضع الاجتماعي للمجتمع الإسلامي ، وقد اختلفت الوظائف والمهن من ترجمة لأخرى ، فمن الوظائف التي ذكرها من خلال تراجمه كاتب الإنشاء في ديوان الموصل زمن بدر الدين لؤلؤ والتي تخصص بها إبراهيم بن عبد الكريم الموصلي (ت628هـ/1230م) ⁽²⁾ ، او وظيفة القضاء التي تولّاها اسعد بن يحيى بن موسى السنجاري

(1) نفسه ، م5ج6/337 .

(2) قلاند الجمان ، م1ج1/114 .

(ت624هـ/1226م) بدنيسر⁽¹⁾ ، او ان تكون وظيفة تعليمية في المدارس ، مثل محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد العزيز ، ابو جعفر الرازي لفقيه الحنفي (ت615هـ/1218م) الذي نزل الموصل وتولى التدريس فيها⁽²⁾ ، وكذلك محمد بن قریش بن مسلم ، ابو عبد الله الاسدي المعروف بالفارقي (ت628هـ/1230م) حيث اشتهر في الموصل بتدريس القرآن الكريم وعلوم الشريعة⁽³⁾ ، او ان تكون الوظيفة الإشراف على الدواوين كما هو الحال عند يعقوب بن إسماعيل النصراني الذي كان مشرفاً على ديوان اربل والذي ورد ذكره أثناء ترجمة اسعد بن إبراهيم بن الحسن بن علي ، أبي المجد النشابي الاربلي المولود بربل سنة (582هـ/1186م)⁽⁴⁾ ، وكما هو الحال عند عبد الله بن المختار ، أبي الفتح المعروف بابن قاضي دارا (ت644هـ/1236م) الذي كان مشرفاً على دواوين قوص (قصة صعيد مصر) وأسوان (مدينة في صعيد مصر)⁽⁵⁾ او ان يكون خطيباً مثل خطيب الموصل عبد المحسن بن عبد الله ، أبي القاسم بن أبي الفضل الطوسي حيث أثنى عليه ابن الشَّعَّار وعلى أسلافه الذين كانوا خطباء للموصل ايضاً⁽⁶⁾.

كما أورد المهن التي مارسها البعض ممن ترجم لهم كالخطاطين والنساخ ، فعندما يترجم لمحمد بن احمد بن أبي عيسى ، أبي عبد الله المايريقي يصفه بأنه كان ناسخاً⁽⁷⁾ ، وكذلك عندما يتحدث عن لؤلؤ بن عبد الله ، أبي سعيد الرومي ، يذكر بأن حرفته كانت صيد السمك⁽⁸⁾ ، وعندما يتحدث عن محمد بن منير بن البطريق ، أبي بكر أبي النجم العجلي ، يذكر له عدة مهن يتدرج فيها ، فمن سائق لصبيان المكتب (مكاتب تعليم الصبيان) ثم انتقل الى مهنة التعليم ، بعدها ترك التعليم ثم أصبح صفاراً ثم بزازاً ، وكل ذلك من اجل البحث عن الرزق⁽⁹⁾ وغير ذلك . فضلاً عن ذلك فقد ارتبط فكره الاقتصادي بذكر الأسواق كسوق البز بمدينة اربل الذي شاهد فيه صالح بن مكارم بن صالح ، أو محمد الاربلي ، وكان دلالاً في هذا السوق⁽¹⁰⁾ ، ثم يذكر

(1) نفسه ، م1ج1/380 .

(2) نفسه ، م5ج6/90 .

(3) نفسه ، م5ج6/202 .

(4) قلاند الجمان ، م1ج1/395 .

(5) نفسه ، م2ج3/212 .

(6) نفسه ، م3ج4/83 وينظر : م5ج6/346 ، 353 و م8ج10/210 .

(7) نفسه ، م5ج6/333 .

(8) نفسه ، م5ج6/24 .

(9) نفسه ، م6ج7/154 .

(10) قلاند الجمان ، م2ج3/123 .

السوق نفسه عندما يترجم لعبد الرحمن بن عثمان بن أبي الفوارس الاربلي ، ابو زيد (ولد سنة 586هـ/1190م) ، حيث ذكر انه كان يعمل في سوق البز بباربل⁽¹⁾ وغير ذلك .

إن ما ورد آنفاً من اهتمام ابن الشعار في الجوانب الاقتصادية من وظائف ومهن وأسواق ، يشير الى فكره الاقتصادي الذي يثبت من خلاله عمران المجتمع المتطور اقتصادياً والذي يقود الى تطور البلد ثم ازدهار الحضارة .

خطط المدن

ان الفكر العمراني المعماري له أهمية كبيرة عند الكتاب والمؤرخين والجغرافيين ومنهم ابن الشعار ، لأن خطط المدن واعمارها انعكاس لاستقرارها وتطورها الاجتماعي والاقتصادي والعلمي ، لذلك فقد تناول ابن الشعار من خلال تراجمه خطط المدن التي ورد ذكرها في تراجمه وعند الحاجة الى ذلك ، مما جعل القارئ ان يعرف خطط المدن في القرن السابع للهجرة - المدة التي عاشها ابن الشعار - ومقارنتها مع المدة السابقة لذلك القرن او القرون اللاحقة له ، لأن إعمار البلد يتطور بتطور المجتمع وازدهار الاقتصاد وتوفر الأمن والاستقرار السياسي .

فمثلاً يتكلم عن خطط مدينة بغداد في أثناء ترجمته لإسماعيل بن حمزة بن المبارك المعروف بابن الطبال (ت607هـ/1210م) ، فيذكر (باب الازج) وهي إحدى أحياء بغداد ثم يذكر ايضاً مقبرة احمد بن حنبل في بغداد ايضاً⁽²⁾ ، وعندما يترجم لإبراهيم بن المظفر المعروف بابن البرني الموصل (ت622هـ/1225م) يتحدث عن بعض خطط الموصل مثل مقبرة المعافى بن عمران التي تقع غرب الموصل ، وكذلك دار الحديث المهاجرة بالموصل التي أنشأها أبو القاسم علي بن مهاجر الموصل ، في سكة أبي نجيج⁽³⁾ .

كما يتحدث عن الجوامع ، كالجامع الأموي في الموصل (الجامع العتيق) عند ترجمته للخطيب الطوسي (ت601هـ/1204م)⁽⁴⁾ ، وعن جامع دمشق في أثناء ترجمته لإسماعيل بن حامد القوسي الأنصاري (ولد سنة 575هـ/1179م)⁽⁵⁾ ، وعن جامع المنصور - الذي يقع في الجانب الغربي من مدينة بغداد - والذي يذكره في أثناء ترجمته للشيخ عبد الرحمن بن عيسى، أبي الفرج البزوري الواعظ (ت604هـ/1207م)⁽⁶⁾ ، ويتحدث كذلك عن الدروب مثل درب ثمل ودرب الخبازين

(1) نفسه ، م2ج3/350 .

(2) قلائد الجمان ، م1ج1/408 .

(3) نفسه ، م1ج1/93 و م5ج6/196 .

(4) نفسه ، م1ج1/163 .

(5) نفسه ، م1ج1/432 .

(6) نفسه ، م2ج3/307 .

ودرب دينار ودرب المقبرة في بغداد⁽¹⁾ وهكذا ، كذلك يتحدث عن الربط في أثناء ترجماته للأعيان ، مثل رباط الصوفية في الموصل⁽²⁾ ، ورباط المناظرة في اربل⁽³⁾ ، ورباط المأمونية في بغداد⁽⁴⁾ وهكذا ، كما يتحدث عن الأسواق مثل سوق العجم وسوق العميد في بغداد⁽⁵⁾ ، وسوق البز في مدينة اربل⁽⁶⁾ .

كما يتحدث عن القلاع مثل قلعة اربل⁽⁷⁾ وقلعة تكريت⁽⁸⁾ وقلعة جعبر⁽⁹⁾ ، وقلعة حلب⁽¹⁰⁾ وقلعة الرها⁽¹¹⁾ وقلعة ماردين⁽¹²⁾ وغيرها . ويتكلم عن المحلات مثل محلة بني شاطئ النهر في الموصل⁽¹³⁾ ومحلة العتابيين في بغداد⁽¹⁴⁾ ومحلة الطغرية في الجانب الشرقي من بغداد⁽¹⁵⁾ وغيرها ، كما يتطرق الى المدارس في البلاد الإسلامية مثل المدرسة الاتابكية العتيقة في الموصل⁽¹⁶⁾ والمدرسة الاسدية في حلب⁽¹⁷⁾ والمدرسة البدرية في الموصل⁽¹⁸⁾ والمدرسة التنشئية في بغداد⁽¹⁹⁾ والمدرسة العادلية في دمشق⁽²⁰⁾ وغير ذلك كثير . كما يتحدث عن الأنهار في المدن الإسلامية ، فيذكر العديد منها مثل نهر جعفر في واسط⁽¹⁾ ونهر مُرّة في البصرة⁽²⁾ وغيرهما .

(1) نفسه ، م3ج4/297 ، 129 و م7ج9/198 و م8ج10/58 و م1ج1/195 .

(2) نفسه ، م2ج3/332 .

(3) نفسه ، م4ج5/193 .

(4) قلائد الجمان ، م4ج5/191 .

(5) نفسه ، م3ج4/262 .

(6) نفسه ، م2ج3/123 .

(7) نفسه ، م6ج7/197 .

(8) نفسه ، م5ج6/294 .

(9) نفسه ، م7ج9/9 .

(10) نفسه ، م4ج5/19 .

(11) نفسه ، م8ج10/300 .

(12) نفسه ، م2ج3/256 .

(13) نفسه ، م6ج7/127 .

(14) نفسه ، م2ج3/138 .

(15) نفسه ، م5ج6/112 .

(16) نفسه ، م2ج3/397 .

(17) نفسه ، م6ج7/170 .

(18) نفسه ، م1ج1/137 .

(19) نفسه ، م8ج10/58 .

(20) نفسه ، م6ج7/155 .

ولاشك ان تلك الخطط الأنفة الذكر وغيرها من التي ذكرها ابن الشَّعَّار تمثل الفكر العمراني عنده الذي يمكن من خلاله رسم صورة واضحة لخطط المدن في المدة التي عاشها .

الخلاصة :

مما سبق يتبين ما يلي :

- ان الفكر العمراني يشمل العمران السياسي والعمران الديني والعمران العلمي والعمران الاقتصادي وعمران المنشآت .
- ان ابن الشَّعَّار حاول ان يعكس فكره العمراني من خلال ما طرحه في كتابه وفي ثنايا تراجمه .
- حاول ان يطرح عمران السياسة من خلال تسليط الضوء على الشخصيات السياسية التي عاصرها ذاكراً انجازاتها .
- طرح المدارس الفقهية الإسلامية التي كان لها دور كبير في خدمة المجتمع وتطوره .
- توسع كثيراً في الجانب العلمي والثقافي من خلال ما ذكره من أشعار وتخصصات ومصنفات ، فضلاً عن الرحلات العلمية والإجازات العلمية والعلاقات العلمية التي أغنت الحضارة الإسلامية .
- ذكر الكثير عن الجوانب الاقتصادية سواء المهن او الأسواق او التجارة والتي كان لها أهمية في استقرار المجتمع وتطوره .
- وأخيراً حاول ابن الشَّعَّار ان يذكر الكثير من خطط المدن التي كان لها شأن في توسيع المدن الإسلامية وتطورها ، فذكر المساجد والمدارس والأنهار والمحلات وغيرها .

مصادر البحث :

1. مقدمة ابن خلدون، مكتبة المثنى، (بغداد: د/ت).
2. ينظر: الجابري، محمد عابد، العصبية والدولة (فكر ابن خلدون)، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد: د/ت)، ص 161.
3. ابن الشَّعَّار ، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، (بيروت: 2005).
4. تاريخ اربل، تحقيق: سامي ابن السيد خماس الصقار، المركز العربي للطباعة والنشر، (بيروت: 1980)، ق 1 / 384 .

(1) نفسه ، م2ج3/ 114 .

(2) نفسه ، م5ج6/ 176 .

5. السبعائي ، حنان عبد الخالق ، المنهج التاريخي عند ابن الشَّعَّار الموصلِي (ت654هـ) في كتابه (قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان) ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (جامعة الموصل : 2010).